# الانحرافات الفكريَّة في مجال مقارنة الأديان في مواقع التواصل الاجتماعي

## – قراءة تحليلية نقديَّة في نماذج من صفحات الفايسبوك–

# Intellectual deviations in the field of comparative religions in social media sites

## – A critical analytical reading in sample of Facebook pages –

د. محمَّد بودبان
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة
الجزائر
comparativereligion81@yahoo.fr

**الملخص:**

تتناول هذه المقالة الوقوف على جوانب منتَقَدة في تعامل الطلبة والدارسين والمهتمِّين بعلم مقارنة الأديان، في نطاق مواقع التواصل الاجتماعي، والتي خصصنا منها صفحات فايسبوكية معيَّنة كنماذج توضِّح المقصود من الدراسة، والذي هو تسليط الضوء على الجوانب السلبيَّة تحديدًا من المنشورات؛ مع شيءٍ من تشخيص المشكلات، واقتراح ترشيداتٍ محدَّدة لها وحلولٍ كذلك.

**الكلمات المفتاحية:** الدين المقارن – وسائل التواصل الاجتماعي – الإلحاد.

**Abstract**:

This article discusses the negative aspects of the interaction of students, academics, and those interested in "**comparative religion**" in social media networking sites.

We have chosen specific Facebook pages as models that; clarify the purpose of the study: it is a question of highlighting the negative aspects contained in the publications. We will try to give a certain diagnosis of the problems, and propose specific rationalizations for them by giving some solutions.

**Keywords**: comparative religion ; social media, religion, atheism.

**مقدمة:**

فقد لاحظت وكثيرٌ من الأساتذة – ولا نزال- من خلال متابعة بعض المجموعات في الفايسبوك، التي تعالج موضوعاتٍ في مقارنة الأديان؛ والتي كان مؤسِّسوها بالأساس أساتذة المادة بجامعتنا – الأمير عبد القادر- وكان أعضاؤها الأوائل طلبة قسم العقيدة ومقارنة الأديان؛ لاحظنا انحرافاتٍ عميقةً في الفُهوم، واضطراباتٍ شديدة ومتنوِّعة في مجال الأفكار والقناعات؛ وكذلك في المناهج والتطبيقات لدى الطلبة؛ بل أحيانًا كثيرة في صميم المعتقدات التي لا جدال فيها في ديننا؛ بما ينذر بمخاطر لا تحمد عقباها في المستقبل القريب، وخصوصًا في مجال الاعتقاد الصحيح، والإيمان القويم؛ وهو ما يدفعنا إلى التساؤل: « **كيف انتقلت بعض صفحات مقارنة الأديان على الفايسبوك من أدوات تواصلٍ اجتماعي إلى أدواتٍ سلبيَّة بنتائجها الخطرة على المعتقد السليم؟ ثمَّ كيف يمكننا إعادة الاستثمار الإيجابي لها**».

وإجابةً عنه كتبت هذه المقالة في صورة القراءة، محاولًا بلوغَ ثلاث غاياتٍ رئيسةٍ هي:

– ترشيد التواصل الاجتماعي المثمر في مجال الأفكار الدِّينيَّة بين الأنا والآخر؛ من باب ازدياد المؤمن إيمانًا، واتِّضاح السبيل لغيره.

– دعوة أساتذة مقارنة الأديان إلى القيام بواجبهم من منطلق مسؤوليَّتهم الدِّينيَّة والأخلاقيَّة اتُّجاه طلبتهم الذين هم أمانةٌ في أعناقهم.

– اقتراح حلول إصلاحيَّة من شأنها تصحيح الأخطاء في الأفكار والمسارات؛ وتوجيهٍ أمثل في سبيل الإفادة الإيجابيَّة من وسائل التواصل الاجتماعي.

حيث سأحاول في المقال دراسة الموضوع من زاويَّةٍ ذاتيَّة، معتمِدًا على ملاحظاتي الشخصيَّة، ثمَّ أقوم بتكميلها من خلال حواراتٍ جرت بيننا نحن أساتذة قسم مقارنة الأديان في بعض متابعاتنا لنشاطات طلبة التخصص سواء في الفضاء الأزرق أو في المسار الدراسي داخل الفصل؛ كما وجَّهتُ سؤالات كتابية إلى مجموعة من الأساتذة، والذين هم إمَّا مؤسِّسون لبعض المجموعات الفايسبوكية، أو من إدارتها، أو متابعون بصورة دائمة لها؛ لأستشفَّ نظرتهم للموضوع بين ما لمسوه، وما يتأمَّلونه مستقبلاً.

## ● المبحث الأوَّل: وصف المنتج في موضوعات مقارنة الأديان على الفايسبوك.

لقد وقعت في حيرةٍ من أمري وأنا أحاول اختيار النماذج التي سأتتبَّع مُنتجَهَا؛ فمادةُ الانحراف متوزعة في كثيرٍ من الصفحات والمجموعات؛ كما لا تقتصر على ما ظاهرُهُ مباحث الأديان، أو الصفحات التي أصحابها دارسون وباحثون في مجال مقارنة الأديان؛ فكلٌّ يخوض في الظاهرة الدِّينيَّة بما يطيقُه وما لا يطيقه. ثمَّ ارتأيت منهجيًّا أن آخذ أربعة نماذج لمجموعاتٍ أسَّسها أساتذةٌ من قسم العقيدة ومقارنة الأديان؛ ليَشرَكني في التتبع والتحليل والحكم بعض أساتذتي وزملائي؛ هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى معرفتي بكثيرٍ من أعضاء تلك المجموعات، خاصَّة من هم طلبتنا ممَّن درَّسناهم، ونعرف طريقتهم في التفكير والبحث –إيجابًا وسلبًا-.

لكنَّ العيِّنة لن تقف عند حدود هذه الأربعة المجموعات؛ فكثيرٌ من الانحرافات عبَّر عنها أصحابها على صفحاتهم الشَّخصية، فأحياناً يشاركونها في المجموعات، وأحياناً كثيرة لا يفعلون.

**المطلب الأوَّل: وصف عام لبعض مجموعات مقارنة الأديان في الفايسبوك.**

إنَّ المجموعات التي وقع الاختيار عليها أربعةٌ: مجموعة: "**الإسلام والأديان**" و"**مقارنة الأديان**"، و"**يدًا واحدة ضدَّ التنصير**" و"**لا للتنصير في الجزائر**" كلُّها مجموعات عامَّة Groupe public يمكن الاضطلاع عليها وإن لم يكن المرء عضوًا فيها؛ وذلك تعميمًا للفوائد، وتحقيقًا للذيوع والانتشار النَّافعين.

وعلى الرُّغم ممَّا أريد لهذه المجموعات الأربعة من التنوُّع في الغرض، إلاَّ أنَّ المادة العلميَّة المنشورة فيها –أربعتَها– تتداخل بشكلٍ كبيرٍ؛ وعادةً وغالبًا ما يطلب أحدهم العضوية في الثلاثة الأُوَلِ مرَّةً واحدةً، والمجموعة الأخيرة لعلَّها الأقل مشاركةً ونشاطًا؛ ولربَّما السببُ في ذلك كونُها خاصَّة بمواجهة التنصير في الجزائر تحديدًا؛ فيُحجِم كثيرون من غير الجزائريِّين الخوض في موضوعاتٍ ووقائعَ لا يعلمون واقعها.

وعلى كلٍّ، فحتَّى مجموعة "**يدًا واحدةً ضدَّ التَّنصير**" لا تحظى بالحماسة التي تنبغي لعنوانها وموضوعها، ونبل أهدافها، وضرورة التجنُّد لهنَّ جميعًا؛ وهي تختطُّ لنفسها مسارًا متباطئًا بتباطئ نشاط أعضائها؛ وفي ظنِّي — وظنِّ بعض أساتذة القسم– أنَّ الأمر يعود إلى الرؤية التي يتبنَّاها الكثير من الخائضين في ما يتعلَّق بالظاهرة الدِّينيَّة عمومًا — وليس فقط من أهل التخصُّص– وهي تجنُّبهم للصِّراعات وإثارتها، ونشر ثقافة التسامح، وافتتاح آفاق أرحب في التعامل مع الآخر، وتجنُّب كلِّ ما من شأنه إثارة النعرات الدِّينيَّة، والحروب الفكريَّة المقامة على أساسها.

وعلى ذلك انتقل النشاط —وكان أكثر غزارةً– إلى المجموعتين الأوليين، ولكنَّه استقرَّ أكثر في المجموعة الثانية، بسبب بريق اسم العلم: "**مقارنة الأديان**" الذي صار من علوم الساعة، ويحبُّ كثيرون الحديث فيه والقراءة عنه، والبحث فيه، والمشاركة في إبداء الآراء ونحوها؛ وهو أبعد من أدنى ما يثير النعرات السابق ذكرها في أذهان الناس؛ مع أنَّ اسم المجموعة الأولى اسمٌ رساليٌّ، يحدِّد أهدافًا مطلوبة من المسلم أينما كان مكانه: "**الإسلام والأديان**" فبالإضافة إلى أنَّه يشمل اسم المجموعة الثانية، غير أنَّه يضيف إليه اللمسة الدعوية الرسالية التي لا يمكن للمسلم أن يحيا من دون أن تتلبَّس بها حياتُه.

وإذا أردنا أن ننظر في فاعليَّة المشاركات وتواترها، وقوَّة تدفُّقها؛ فإنَّ ممَّا يؤسف له أنَّ آخر مشاركةٍ في مجموعة "**لا للتنصير في الجزائر**" كانت في 14 جانفي 2015م؛ ثمَّ إنَّ المشاركات خلال العام 2014م كانت هزيلةً إلى حدٍّ كبيرٍ. ومجموعة "**يدًا واحدة ضدَّ التنصير**" – وإن كانت بضع مشاركات قد أدرجت في الثلاثة الأشهر الأخيرة– إلاَّ أنَّ انقطاعًا نلحظه بين المنشورات، يشكِّل فجواتٍ تعبِّر عن فتورٍ في التفاعل وفي الإنتاج، وفي المتابعة؛ وأكثرُ المادة خارجة عن خطِّ هذه المجموعة والتي سبقتها، وموضوعيهِمَا.

ومجموعة "**الإسلام والأديان**" حالها أقرب إلى الثنتين السابقتين، وآخر المشاركات تبلغ شهر جوان 2015م مع فتورٍ فيها نوعًا ما، وتباعدٍ في المشاركات.

وتُظهر مجموعة "**مقارنة الأديان**" الفارق؛ حيث التفاعل كلُّه قد ألمَّت به، وإلى الساعة ترد المشاركات؛ ولعلَّ الغالب الأعمَّ ممَّا سنورده من الانحرافات ستظهر أمثلته منه؛ مع جزءٍ آخرَ كبيرٍ تابعناه من الصفحات الخاصة بكثير من أعضائه؛ لا نستطيع ههنا ذكر أسمائهم خشية التشهير، أو تضييع النصيحة بالفضيحة؛ وإنَّما العبرة بالمضمون.

وفيما يلي، تعريفاتٌ موجزة عن هذه المجموعات الأربعة، كالآتي:

**1/ مجموعة الإسلام والأديان**[1]:

مجموع الأعضاء المنتمين إلى المجموعة 2709 عضوٍ[2]؛ وجاء التعريف بالمجموعة بأنَّها: « فكريَّةٌ دينيَّة أكاديمية، تُعنى بمناقشة أهم المحاور الفكرية ذات الصلة بعلم الأديان المقارن، وبالواقع المعاصر، كما تعنى بمناقشة أهم المقالات المنشورة، وأهم الكتب الصادرة حديثا».

وفي سؤالٍ موجَّهٍ لأستاذتي الدكتورة: "آسيا شكيرب" مؤسِّسةِ المجموعة، عن غرضها من تأسيس المجموعة، قالت: « كان هدفي من تأسيس مجموعة الإسلام والأديان منذ خمس سنواتٍ، هو نقل صورة الإسلام وسماحته إلى كل من يلتحق بهذه المجموعة، فمنذ أحداث الحادي عشر سبتمبر والدراساتُ الإستشراقية الإعلامية المعاصرة، تنقل للعالم بأسره صورةً قاتمةً عن الدين الإسلامي، الذي انتشر بحدِّ السيف وسالت على جنبات دولته أنهارٌ من الدماء –حسب ما زعموا- فجاءت المجموعة لترسم الصورة الصحيحة للإسلام مقارنة بالأديان الأخرى، وقد لاقت هذه المجموعة انتشارا واسعا في بدايتها».

**2/ مجموعة مقارنة الأديان**[3]:

مجموع الأعضاء المنتمين إلى المجموعة 7695 عضوٍ[4]؛ وممَّا ورد في التعريف بها الآتي: « هذه المجموعة تابعة لقسم مقارنة العقيدة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية وتضم خيرة أبنائها وطلبتها وأساتذتها. كما ترحب بكل الضيوف الكرام من مختلف دول العالم من أساتذة وطلبة وباحثين».

**3/ مجموعة يد واحدة ضد التنصير**[5]:

مجموع الأعضاء المنتمين إلى المجموعة 2157 عضوٍ[6]؛ وقد عرَّفت بها الدكتورة آسيا شكيرب التي أسستها بقولها: « لنقف جميعنا لصدِّ طوفان التنصير الذي يعصف بعالمنا الإسلامي ويخرج أبناء الأمَّة إلى ملَّة التثليث؛ لنكن قلبًا واحدًا ينبض فكرًا، ينير الدروب؛ لنكن يدًا واحدةً تحطِّم قيود الجهل، وتعبّد الطريق لبناء حضارة تُعنى بتوحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد... لنكن يدًا واحدةً ضدَّ التنصير».

**4/ مجموعة لا للتنصير في الجزائر**[7].

بلغ أعضاؤه زهاء 1307 عضوٍ؛ وجاء في ديباجة وصف المجموعة الكلام الآتي: «إلى متى نظلُّ صامتين، وفيروس التنصير ينخر جسم الأمَّة الإسلاميَّة من الداخل؛ يجب علينا الوقوف، والتصدِّي لمن يريد تغريبنا، فكريًّا وروحيًّا ..».[8]

وعن سبب تأسيس هذه المجموعة والتي قبلها، تقول الدكتورة آسيا شكيرب: « أما مجموعة "**يدًا واحدة ضدَّ التنصير**"، و"**لا للتنصير في الجزائر**" فكان تأسيسهما بدافع الحدِّ من انتشار المسيحية في العالم الإسلامي عامَّةً، وفي الجزائر خصوصًا؛ وقد اهتمت المجموعتان

بالتعريف بالديانة المسيحية، ونشأتها، والانحرافات التي لحقت بها، كما عالجت المجموعة مشاكل اجتماعية مختلفة، تسببت في تنصُّر البعض، وقد انتشرت المجموعتان على نطاق واسع، وكان لهما صدًى إيجابيٌّ».

**المطلب الثاني: تقويم عام للإيجابيات والسلبيات.**

على العموم ثمَّة إيجابيَّات وسلبيَّات كأيِّ تجمُّع بشريٍّ يتطارح الأفكار[9]، ويبتغي تحقيق الأهداف، ويمكننا تصنيفها على ذلك في الآتي:

**1/ تقويم الإيجابيَّات:** لمَّا كان المقصد من هذه الدراسة التركيز على الانحرافات الفكرية في مجال مقارنة الأديان، فإنَّ الإيجابيَّات ليست مقصودةً بالأساس، وإنَّما يجمُلُ بنا أن نذكر شيئًا منها ولو على سبيل العموم، ووفق ذلك يمكننا تعديد ما يلي:

- لعلَّ أوَّل الإيجابيَّات هو وجود مثل هذه المجموعات بالأساس، وفق الأهداف التي اختطَّها لها منشِئوها.

- ومنها أنَّه ينتظم في سلك أعضائها متخصِّصون في علم مقارنة الأديان، وباحثون في مجالاته، وطلبة ينهلون في دروب معارفه ومعلوماته.

- ومنها تجميع الجهود في سبيل قضيَّة العقيدة والإيمان، والدفاع عن الإسلام وخدمته من طريق علم مقارنة الأديان.

- ومنها دورها في إطلاع بعض الأعضاء بعضًا على البحوث والدراسات، والمؤلَّفات، والوثائق سمعيَّةً وبصريَّة وإلكترونية، وسائر الأوعية المعرفيَّة التي من شأنها تعميق المعارف في مجال الأديان؛ وتشجيع التنافس في ذلك.

- ومنها دورها في الاضطلاع على الشبهات التي تثار عن الإسلام، والإجابة عنها؛ بما من شأنه أن يزيد المؤمن إيمانًا، ويذهب الوسواس عمن أصابه، ويهلِك من أراد الهلاك عن بيِّنةٍ تُوضَّح له.

**2/ تقويم السلبيَّات:** وهي المقصودة بالبحث؛ ولا نبتغي تعديد مظاهر الانحراف ههنا، فسيأتي بيانها فيما يُستقبل من الدراسة؛ بل المراد نظرةٌ عامَّة فقط، ويمكننا أن نقول ههنا ما يلي:

**أ- عدم الاقتصار على المجالات المعرفيَّة التي ضُبطت بها المجموعات:**

ويدخل ههنا حتَّى الموضوعات التي تخدم الإسلام ولكنَّها تعدُّ خروجًا عن الأهداف والسبل المحدَّدة الخادمة للإسلام أيضًا؛ وذلك كان من شأنه أنَّه شتَّت الجهود، وضيَّع الإفادات المرجوَّة في كثير من الأحيان؛ وهو ما لاحظته الدكتورة آسيا شكيرب حيث تقول: «ما أعيبه على المجموعات هو نشر بعض أعضائها مواضيعَ لا تخدم المنحى العام للمجموعات، مما جعلنا نغيِّر إعدادات المجموعة، ونضيِّق على الأعضاء النشر؛ وهذا كان عاملا سلبيًّا، أدَّى إلى عدم اهتمام الكثير من الأعضاء بالمجموعات؛ بالإضافة إلى عدم وجود التفاعل، ففي كثيرٍ من الأحيان نطرح قضايا مهمَّةً للنقاش، ولا نجد استجابةً من الأعضاء، مما أدَّى إلى فتور همَّة المدراء أو المشرفين».

**ب- تضخُّم الأنا:**

لقد صار لمستخدم وسائل التواصل الاجتماعي قدرةٌ لقول ما شاء، وقت ما شاء، كيفما شاء؛ من دون أن يكون ثمَّة ما يُقابلها من الرقابة التي تُرشِّدها، وتحوطها بأسباب التقويم والمراجعة. وإذا كانت وسائل التواصل

الاجتماعي تتيح لمستعملها أن يصنع مجتمعًا يحيا فيه افتراضيًّا؛ فإنَّ الجوانب السلبيَّة التي يُقدم عليها صانعُ مجتمعِه – وفي غالب الأحيان من دون شعورٍ منه- أنَّه يصنعه ليعبِّر أفرادُه عن وجهة نظره هو؛ وبالطريقة التي يريدها كذلك هو؛ وكلَّما ازداد المادحون لآرائه، والمُطْرُونَ لفكره واختياراته – وهو الذي اختارهم واختار لهم نهجهم- ازداد معهم اعتداده بأحكامه ورؤاه.

وإنَّ النقاشات حول الموضوعات الدِّينيَّة المقارنة استهوت أصحاب التخصُّصات المختلفة؛ وكلُّ صاحب مذهبٍ وموقفٍ حول الدِّين أَسَّس مجتمعه الافتراضي، وألقى في أفراده أفكارَه، بـ "**أنا**" متعاظمٍ متضخِّم؛ يحمله على تتفيه آراء الآخرين، والسخريَّة منهم، وكَيلِ التُّهم لهم مع السِبَاب والشتم أحيانًا؛ وفي الغالب الأعمّ يكون ذلك كلُّه متوجِّهًا ضدَّ أهل الحق والصواب.

**ج- الاستعاضة عن البحث العلمي الجاد بالنقول:**

حيث في خضم مثل هذه المجموعات - وحيث يكون الجدل سيِّد الكلام- نحتاج للعلميَّة والمنهجيَّة التي ترشِّد الحوار والجدل والمناظرة؛ ولا يكون ذلك إلاَّ باكتساب الشخصيَّة الباحثة، واكتساب أدوات البحث وطرائقه؛ وهي أمورٌ نادرةٌ تكاد تكون معدومةً. فالأصل الذي كان ينبغي أن يوطِّن عليه أعضاء المجموعات أنفسهم، ويوجِّهَهم إليه المشرفون هو البحث والتقصِّي، لا مجرَّد النسخ واللَّصق للوثائق أو النصوص. وإن كان البعض يثبت العزو، فإنَّ كثيرين ينتحلون مواقف غيرهم وأقوالهم كأنَّما هم أصحابها، وفي الحقيقة هم فقط يحكونها.

وفي هذا السياق تقول الدكتورة آسيا شكيرب في جوابها عن سؤالنا: هل أنت متفائلٌ بمستقبل التخصص على مستوى جهود الطلبة ومستوياتهم؟: « مستوى الطلبة متباينٌ، هناك المميَّزُ، والذي يرقى لأن يكون باحثا مستقبلاً، ومع ذلك لست متفائلة أبدا، بل بالعكس أشعر أن مستقبل التخصص دونه غيومٌ سوداء، فجلُّ الطلبة مكيافليُّون، يهمُّهم الوصول السريع على حساب التحصيل العلمي؛ وقد قدَّمت لهم التكنولوجيا تسهيلاتِ التَّحصيل السريع، وسرقة العلم، ممَّا أدى إلى تكوُّن جيلٍ تسكنه الأنانية والعجلة، فلا يمكن أن نستبشر بمستقبلٍ مع جيلٍ أنانيٍّ».

**د- إساءة الأدب في الحوار:**

وحقيقةً ليست هذه المجموعاتُ بدعًا في المجموعات؛ فقد صار فتح أيِّ نقاش سهلاً؛ وأمَّا إدارتُه فصعوبته بالغةٌ؛ وقلَّما تنتهي المناقشات بالحسنى، ولعلَّ الأمر أشنع، وأبرز ظهورًا على الصفحات الشخصيَّة لبعض الأعضاء؛ إذ نقرأ أحيانًا سبابًا بألفاظٍ سفيهةٍ وشنيعةٍ، لا تصدر إلاَّ من سفلة القوم.

**هـ- قلَّة التفاعل:**

وهذا نلمسه بشدَّة في موضوعات التنصير، وحين يتعلَّق الأمر كذلك بالموضوعات الدفاعيَّة عن الإسلام؛ وسيأتي بياننا لبعض أسبابه، حين الكلام عن الانحرافات.

- **المبحث الثاني: الانحرافات في مجال مقارنة الأديان وخطورتها من خلال بعض العيّنات.**

**المطلب الأوَّل: أنواع الانحرافات وطبيعتها.**

سوف نحاول في هذا المطلب تعديد أهمَّ أنواع الانحرافات، والتي لها علاقةٌ مباشرةٌ بأصول الإسلام؛ ويعدُّ حضورها في مشهد الموضوعات الدِّينيَّة حضورًا

لافتًا، حيث تترتَّب عليه آثارٌ رهيبة، متوافقة مع طبيعتها المهمَّة؛ وهي كالآتي:

**أ/ الاستهانة بالمقدسات:**

الاستهانة بالمقدَّسات هي أوضح ما يمكن ملاحظته في مناقشة المسائل الدِّينيَّة في الفضاء الأزرق؛ ولربَّما يكون من الهيِّن والعادي – نسبيًّا – أن يكون المستهين بالمقدَّسات ملحدًا، أو من غير الأمَّة المقدِّسة لذلك الشيء؛ أمَّا أن يكون بعض المستهينين بالمقدَّسات الإسلاميَّة من المسلمين فهذه كارثة؛ وأن يكون بعضهم طلبةً من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة فهي الطامَّة الكبرى.

ويجري هنا في الحوارات، أو التعليقات والردود، اعتماد نفس الأساليب القديمة التي لوَّث بها المستشرقون عقول المثقفين المسلمين، ومن ذلك السرد التاريخي لتطوُّر الغرب في مفاهيمه الدِّينيَّة والوضعيَّة والماديَّة، وكيف كانت البداءة بنبذ الدِّين وراءه ظِهريًّا؛ حيث أعاق الفكرُ الدِّيني هناك تقدُّم الفكر العلمي؛ من خلال سيادة الخرافة والأسطورة، وأمور السحر والشعوذة والماورائيات عمومًا؛ والتي تُعزى أساسًا للدِّين، أو أنَّها هي الدِّين نفسُه عندهم. وجُعل ههنا التعظيم أو التقديس مرادفًا لإغلاق العقل وتغطيته وكَفْرِه؛ وتعطيل طاقاتِهِ، وقتل الفكر، وهدم وسائله ومرتكزاته... الخ.

ثمَّ يُرشدون إلى أنَّ الطريقة المثلى في تحرير العقل من عبودية الجهل والخرافة والأسطورة – والتي يدافع عنها الدِّين بزعمهم- هي أن يتمَّ تجريد كلُّ شيءٍ من أيَّة حصانةٍ تقتضي معاملةً خاصَّةً معه. وسيرًا على هذا المنطق، فليس القرآن العظيم – على سبيل المثال- سوى نصٍّ، ينبغي دراسته كأيِّ نصٍّ أدبيٍّ، من دون أن تحول القداسة بيننا وبين نقده، بل وبيننا وبين بيان أخطائه – عياذًا بالله- ومعارضةِ أفكارِهِ، تلك الأفكار التي خُلعت عليه منذ نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان، ككونه يعجَز الخلق أجمعون أن يأتوا بمثله، أو كونه سلِم من أدنى التحريف أو التبديل، أو الزيادة أو النُّقصان؛ أو كونه جاء بأعظم تشريع على الإطلاق، صالحًا لكلِّ زمانٍ ومكانٍ...الخ.

وهنا سجَّلنا اندفاعًا عجيبًا من الخائضين في المواضيع الدِّينيَّة في بعض المجموعات، وأكثرُه جاء منهم على صفحاتهم الشخصية، أو تعليقاتهم على منشورات بعضِهم من البعض؛ بحيث تعلوا القهقهات، وتتواتر السخريات في أمورٍ من هذا الشأن؛ حيث المرمى والمراد والهدف البعيد هو القرآن الكريم – شعروا أم لم يشعروا- .

وإذا كان الكلام – كما نرى- مراده الأساس هو مهاجمة القرآن الكريم، فإنَّ التمهيد له كان ولا يزال بالنيل من العلوم العائدة إليه؛ والتي يدخلها الاجتهاد البشريُّ الذي يقوم به علماء الشريعة؛ فمثلاً في الفقه نجد كلامًا – طبعاً مكرورًا عن كتابات مستشرقين ونحوهم- من أنَّ الفقه الإسلاميَّ والشرائع من وضع الفقهاء، وهم بشرٌ عاشوا في غابر الأزمان، يتَّصفون عادةً بالجهل بأمور الدنيا، وبأمور العقل، كما يتَّصفون بالتعصُّب الشديد. أو يوصفون بأنَّ خطابهم غلبت عليه الذكوريَّة، أو أنَّهم يعادون الجمال وقيمه...الخ. وهكذا كلُّ صاحب مذهبٍ يصفهم بما يعارضه في مذهبه ومقالته. ثمَّ تتعالى الصيحات بإنقاذ شريعة الله من أيدي الفقهاء؛ ومن تقديس الفقهاء الذين ليسوا بأكفاء في القيام بأمور الدِّين؛ ويراد حينها جعل الكلام في أمور الدِّين مباحًا للجميع؛ وأيُّ معارضةٍ لفهمهم تعني أنَّنا

نقدِّس الفقهاء ونقدِّس الفقه؛ ونحجِّرُ على النَّاس الاجتهاد.

وهنا ننبِّه على أمرٍ جللٍ، وهو أنَّ نقود هؤلاء النَّاس لا تتوجَّه أساسًا إلى اجتهاداتٍ متعلِّقة بفروع الفقه، أو اجتهاداتٍ مرتبطة بعلومٍ كونيَّة تستعصي على الفقيه؛ وإنَّما تتوجَّه أساسًا إلى الشرائع التي أصَّلها الكتاب والسنَّة؛ كالحدود، والحجاب، أو الربا ونحوها من المسائل التي مقاصدها واضحةٌ في الإسلام.

ونضيف مثالاً ثالثًا؛ هو متعلِّقٌ بوسيلة تبليغ الوحي وفهمه، وهي اللغة العربيَّة، فنجد من يتحدَّث عنها محتقرًا إياها، مترفِّعًا في خطابه؛ واصفًا بالخرافة كونَها لغةً مقدَّسةً، أو أنَّها لغة أهل الجنَّة؛ إنَّما هي عنده لغةٌ كباقي اللُّغات؛ بل هي أضعف من بقيَّة اللغات، لغةٌ لا تصنع حضارة ولا تقدُّمًا... إلى آخر ذلك من التُّهم؛ والنتيجةُ أنَّ الازدراء سينسحب على الكتاب الخاتم الذي خاطبنا الله فيه بكلامٍ عربيٍّ مبينٍ.

وهنا ينبغي التَّنبيه على أنَّ حقيقة مفهوم "**المقدَّس**" في الإسلام وتاريخه؛ تختلف عن مفهومه في غيره، وفي الدراسات الاجتماعيَّة والأنثروبولوجيَّة الحديثة، حيث إنَّ المعنى الشائع عند علماء الأديان والاجتماع والإناسة، والذي له علاقة ببحثنا ههنا، عن المقدَّس هو أنَّه: "الشَّيء الذي يحميه الدِّين ضدَّ الاعتداء، أو الاغتصاب، والهجوم والتدنيس"[10]. والتقديس: "فصل أيِّ شيءٍ عن الحياة الاعتياديَّة باعتبار أهميَّته الخارقة للطبيعة"[11].

وأمَّا في الإسلام وإن كان يتَّفق مع بعض ما سبق؛ غير أنَّ له منحًى آخر؛ إذ المعنى عائدٌ إلى أنَّ القُدُس الطُّهر؛ وقول الله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[12] أي ننسِبُك إلى الطهارة. والتقديس قريبٌ من التسبيح في المعنى؛ فمن قدَّس الله فقد نزَّهه من الشِّرك، وأخلص له الوحدانيَّة، فهو إذن عبارةٌ عن تبعيد الربِّ عمَّا لا يليق بالألوهيَّة[13].

والتَّقديس الذي يُعنَى به هؤلاء الخائضون في البحوث الدِّينيَّة هو المقابل لمصطلح "**العصمة**" في الإسلام والتي هي حقيقةً لا تنبغي إلاَّ لله تعالى، وما عَصَمَه – سبحانَهُ– من وحيٍ أو أنبياء، أو ما شاء من شيءٍ. لذلك فقد أُشرِب اللَّفظ العربيُّ: "**مقدَّس**" معانيَ زائدة عن الدلالة المعجميَّة المركزيَّة. وأمَّا الدلالات الزائدة والناشئة أساسًا في البيئة الغربيَّة فتنطبق أكثرَ على الديانات الوثنيَّة، ثمَّ على اليهوديَّة والنَّصرانيَّة؛ كما إنَّها في منطلقاتها التي تنبني عليها تراعي فقط كون التَّقديس أمرًا وضعيًّا من اختراع الإنسان؛ وهو ما يجعلُ دراسة مظاهره وكيفيَّاته لا تتواءم كثيرًا مع الإسلام ومفاهيمه في ذلك.

## ب/ سوء الأدب مع الشخصيَّات الدِّينيَّة:

فقد توجَّه سيلٌ كبيرٌ من النَّقد إلى مبلِّغي الدِّين وحملته؛ وليس هو بالأمر الجديد؛ اِطعن في صاحب الفكرة أو حاملِها، وسينتقل مضمون الطعن إلى الفكرة ذاتها. وسوءُ الأدب هذا منبنٍ على ما سبق بيانه من الاستهانة بالمقدَّسات؛ حيثُ يتمُّ الانطلاق من حقيقة كون "ألاَّ معصومَ من بني الإنسان إلاَّ من عصمَهُ اللهُ تعالى من الأنبياء"؛ وينجرُّ عنه أن لا أحدَ يعلو فوق سيف النَّقد؛ ولكنَّ المقصود بعد ذلك أحد أمرين:

- إمَّا التوصُّل بذلك النقد إلى ما لا يجوز نقده، أو من لا يجوز نقده.
- وإمَّا ممارسة النَّقد من قِبل من ليس من أهله.

وغاب عن الأذهان أنَّ الناس على مراتب؛ وأعلاهم منزلةً أتقاهم وأورعهم، وأعلمهم بالله تعالى؛ فيكون أعلاهم الأنبياء والمرسلون وعلى تفاوتٍ فيما بينهم قربًا إلى الله عزَّ وجلَّ الذي يرفع درجات من يشاء. وقد عُلِّمنا في ديننا –وهو ما يذعن له كلُّ ذي لبٍّ حصيفٍ– أن ننزِّل النَّاسَ منازلهم؛ هذا الإنزال يقتضي مفاضلةً في المعاملة، في الحديث والخِطاب، وكذا في الظنون... الخ. فلا يخاطب الابن أباه كما يخاطب أحد أقرانه، ولا يخاطب التلميذ شيخَه كخطابه الصبية في الشارع. فالخطاب المخصوص، له مبرّراته الشَّرعيَّة والواقعية التي تحدِّد تلك الخصوصيَّة؛ فعلى سبيل التمثيل: توقير الشيخ الكبير الصالح تمليه عدَّة أمور من نحو: وقارِهِ وسمتِهِ وصلاحِهِ وزيادتِهِ بالسجود والركوع والصيام، وحكمته وتجربته في الحياة... الخ. وإن أنسى لا أنسى أحد التعليقات لأحدهم الذي قال: «إبراهيم وصَحَّ وجهو مع باباه» أي: «إبراهيم وكان وقحًا مع أبيه»، يتحدَّث هكذا: "إبراهيم" من دون "عليه السلام"؛ وهل من يخاطب أباه: «يا أبتِ» يكون وقحًا؟ ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

## ج/ جلد الذات، والتساهل مع الآخر:

وهذا الأمر منبنٍ على ما سبق؛ فالذي ينسلخ من مكوِّنات هويَّته الدِّينيَّة لا بدَّ أن يبحثَ لنفسه عن بديلٍ؛ وإنَّا لنجد على الصفحات عجبًا؛ بحيثُ يتمُّ انتقاد أدنى المظاهر الحياتيَّة الخاطئة في البيئة الإسلاميَّة حتَّى وإن كانت سلوكاتٍ شاذَّة صادرة من بعض الأفراد؛ ويُنسب ذلك – تصريحًا أو تلويحًا– إلى الإسلام. ويكون الأسلوب في ذلك هدَّامًا يبشِّر النَّاسَ أنَّه قد هلك النَّاسُ. وإنَّ ما يتمِّم ذلك الهدمَ أن يصوَّر أجملُ ما هو عند الغرب – سواءٌ أكان حقيقةً أم مصنوعًا– من دون إلقاء البال إلى ما يمكن أن يشوِّه ذلك الجمال الحالم من تفصيلاتٍ أو عناصر صادمة؛ لتكتمل في الأخير في الأذهان صورتان متناقضتان: شناعاتٌ لدى المسلمين، وجماليَّاتٌ لدى الغرب.

وعادةُ المناقشات التي تجري في هذا المجال أنَّه إذا ذُكرت حسنةٌ للمسلمين وجدتَ من يقول رأيتم هذا، ونسيتم الاقتتال بين المسلمين؟ ونسيتم الشرور التي في مجتمعاتهم؟ (ويذكرون أمثلةً كثيرة، كلٌّ حسب مجتمعه). ونفس الأمر تقريبًا إذا ذكرت شناعةٌ من شناعات الغرب؛ تجد على سبيل المثال من يقول لك: على الأقل هم يعرفون للإنسان حقوقه، هم على الأقل لا يأكل بعضهم لحم بعضٍ حيًّا وميِّتًا؛ هم على الأقل بلادهم جنَّاتٌ وأنهارٌ لا يُخربونها...الخ. وإذا ذُكرت حسنةٌ للغرب، تجد من يقول: تلك هي بلاد الحق، كيف لا يدخل أمثال هؤلاء الجنة؟ وتجد من يسخر أصلاً وكأنَّه لا ينتمي إلى المسلمين: "هم إلى النَّار، وأنتم إلى الجنَّة؟" ونحوها من العبارات.

والملاحظ ههنا تيهٌ فكريٌّ عميق يحياه الخائضون في مثل هذه الموضوعات – سنبيِّن بعض أسبابه لاحقًا– بحيث يسلكون مسالك خاطئة، فيجعلون – مثلاً– سلوك بعض المسلمين حجَّةً على الإسلام؛ وفي المقابل يجعلون سلوك الغربيِّين حجَّةً للنَّصرانيَّة واليهودية وغيرهما من الأديان. ويقابلون بين أمور الدِّين وأمور الدنيا، وكأنَّما فهموا أنَّ الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء والمرسلين، ليعلِّموا النَّاس المخترعات والكشوفات؛ فتخلُّف المسلمين في الماديَّات يجعل ديانتهم متخلِّفةً، وغير نافعةٍ بحسب فهومهم.

وإنَّ ممَّا يلحظه المتتبِّع للنهج الذي يعتمده كثيرٌ من الخائضين في مقارنة الأديان في حواراتهم أنَّهم يأخذون

كلام الآخر – غيرِ المسلم- كمسلَّمةٍ لا يناقشونها؛ ولعلَّ من أسباب ذلك إدراك المُسَلِّم تمكُّن الآخر من المجال المعرفي الذي أورد منه معلوماته من جهةٍ، ثمَّ من جهةٍ أخرى مسايرةً للتيَّار – بشعورٍ، ومن دونه- حيث يخشى أنَّه لو انتقد مستشرقًا معظَّمًا، أو باحثًا اجتماعيًّا مرموقًا، أن تنهال عليه سيولٌ جارفة من السخرية والتسفيه والتتفيه لمقالته. وفي الجهة المقابلة ينحاز إلى جهة القوَّة – في نظر كثيرين ممَّن يتماشون مع منطق المنتصر في اللحظة، ولو كان صاحب باطلٍ- فتجده بعد أن صدَّق الآخرَ في مقدِّماته ومنهجه ونتائجه؛ واتَّخذها مسلَّماتٍ لديه، يقوم بعدها بالتشكيك في كلِّ ما تلقَّاه المسلمون كابرًا عن كابر؛ ويوجِّه جهده بحسب توجيهات الآخر له، بحيث يركِّز على المسلَّمات، ليجادل فيها، ويشكِّكَ فيها من الأساس؛ وأمَّا الأدوات في ذلك، فهي جاهزة منذ الهجمة الاستشراقيَّة على وجه التحديد.

**د/ التبعيَّة للآخر:**

وهذا الأمر مُنبنٍ على ما سبق بيانه، ونتيجةٌ له؛ فالذي انبهر بالآخر واحتقر ذاته وهويَّته – ولو جزئيًّا- وعظُمَ في عينيه مخالِفُهُ في الدِّين؛ فلا بدَّ له وأن يتمَّ استلابُ عقلِهِ وفكرِهِ وأدواتهما؛ بحيث يصير من أجنادهم – شعر بذلك أم لم يشعر- وهنا يمكننا أن نلاحظ في يُسرٍ كيف يقع كثير منهم فيما فرُّوا منه؛ فمثلاً نجد من يحارب تقديس المسلمين للأشخاص، يقدِّس هو ذاتُه فلاسفةً ومفكِّرين من الغرب؛ بل ويكون ذلك مع الفارق، بمعنى: هو لم يحارب التقديس المذموم للأشخاص، وإنَّما – بشعورٍ ومن دونه- لم يستطع هدم فكرةٍ، فجعلها من إنشاء بشرٍ، ثمَّ دعى إلى عدم التحجُّر على أفكار البشر، لتذهب بعد ذلك الفكرة وصاحبها معًا.

وكمثالٍ ثانٍ، فإنَّك تجد من يدقِّق في أصول علوم المسلمين يحاول أن لا يقرَّ لها بالأصالة – ولو من دون شعورٍ منه- وفي المقابل إذا قرأ عن نشأة العلوم من المنظور الغربي، تجده يقنع بما قالوا من دون أن يدقِّق في الأدلة، اللهمَّ إلاَّ حين يجد أنَّ أصل علمٍ ما، لم يخرج من لدُنِ اليونان أو الرومان ونحوهم، حينها يشكُّ. وهذا أصلاً أمرٌ ليس بالجديد، فالمحاولات الاستشراقية في إثبات عدم أصالة مادة الإسلام وعلومه – بما في ذلك نصوص الكتاب والسنَّة- بمحاولة إرجاعها إلى الكتب السابقة، وعلوم الأمم السابقين وحضاراتهم...الخ؛ أو من خلال جعل مادة الإسلام وعلومه من وضع البشر؛ كلُّ ذلك تمهيدٌ لنسفها من الأساس، وهيهات لهم.

**هـ/ الخلط المنهجي بين التعميم والتخصيص والتسوية:**

بحيث تجد لكلِّ واحدٍ من هذه الثلاثة الأمور استعمالاً ولكن في غير محلِّه:

فأمَّا **التَّعميم:** فكقولهم: "كلُّ الأديان تبحث عن خير الإنسانيَّة جمعاء"؛ "كلُّ الأديان لا تدعو إلى العنف ولا تمارسه"؛ "كلُّ الأديان تدعو إلى الأخلاق الكريمة، وتنهى عن السوء والفحشاء"؛ "كلُّ الأديان تدعو إلى المحبَّة"... إلى آخر ذلك من التعميمات التي تجعل الأديان دينًا واحدًا رغم تعارضها؛ وهنا يحتار المرء: إذن فلنعتنق أيَّ دينٍ ما دامت كلُّ الأديان خيرٌ، وكلُّها مُنجيَّة؛ وهذا حمقٌ واضح.

وأمَّا **التسوية** فنجدها في اتِّجاهين:

- **الاتِّجاه الأوَّل**: ويعمل على إسقاط سيِّئات أهل الدِّيانات المختلفة على الدِّين الإسلامي؛ فإذا كان الإيمان – مثلاً– يتعارض مع العقل في غير الإسلام، قام المتحدِّثون بوصم الإيمان في الإسلام بأنَّه ضدَّ العقل كذلك. وإذا كانت النَّصرانيَّة ممثَّلةً في حملَتها من رجال دينها، قد اضطهدت رجالَ العلم المادي والكوني والطبيعي، وأعملت فيهم أدوات الموت الرهيبة، فيوصم الإسلام كذلك بأنَّه عدوٌّ للعلم وللعلماء... وهكذا.

- **الاتِّجاه الثاني**: التسوية في الجوانب الإيجابيَّة – أي سحب الإيجابيات التي ينماز بها الإسلام عن غيره من الأديان لتُخلع على الأديان الأخرى، ستراً لسلبيَّاتها– فإذا كان الإيمان الحقُّ الصادق الذي جاء به الإسلام يطمئنُّ به صاحبه، ويُحييه حياةً طيِّبة، فنجد تسويته مع أيِّ إيمانٍ ولو بتأليه الحشرات والحيوانات.

وأمَّا **التَّخصيص**، فنقصد به المحاولات التي يراد منها إلصاق السلبيَّات بالإسلام، أو إلصاق الإيجابيَّات بدينٍ آخر دون الإسلام. وهذا التَّخصيص عادةً ما يكون بعد التمهيد له بالخطوتين السابقتين؛ وقد وقفنا عليه في بعض الخطوات التَّنصيريَّة مثلا؛ فبدايةً يقال: كلُّ الأديان خيرٌ وبركةٌ – وهذا من شأنه إضعاف عزيمة المسلم أن ينافح عن دينه وانخداعُهُ بكلامٍ ظاهره إرادة الخير – ثمَّ في خطوةٍ مواليَّة يقال: كلُّ الأديان لها سلبيَّات وإيجابيَّات حتَّى الإسلام كذلك؛ ثمَّ أخيرًا تذهب النَّصرانيَّة بالإيجابيات، ويخصَّص الإسلام بالسلبيَّات، وهكذا.

**و/ التَّخليط في معالجة الموضوعات واختيارها.**

ولا يقتصر الأمر على الطلبة والباحثين في مقارنة الأديان، بل يعمُّ غيرهم؛ وهذا التَّخليط نلحظُهُ بشكلٍ أساسٍ في مظهرين، أحدهما: **تفريق المجتمِع**؛ حيث نجد موضوعاتٍ مكتملة البنيان ومتناسِقَتُه؛ فيأتي باحثون، أو خائضون، فيفتِّتوه إلى أجزاءٍ كثيرةٍ، ويُلقون في ذهن المتتبِّع أنَّ تلك الجزئيَّات تحتاج إلى البحث الدقيق، وأنَّ النتائج القديمة ليست صائبة؛ أو أنَّ الاتِّفاق بين الباحثين حولها قديمًا هو اتِّفاق متوَّهمٌ، أو مُدَّعًى. وغالبًا ما يكون أسلوبهم في سبيل تحقيق هذه الأهداف أنَّهم كلُّما اقترب ذهنُ القارئ إلى إقرار اتِّفاقٍ بين الباحثين أو أغلبهم؛ ألقوا إليه ما يشكِّكه في حصول الاتِّفاق، أو إمكانيَّة تحقيقه؛ وهو أسلوبٌ قديمٌ قدم الاستشراق، غير أنَّه ما يزال يؤتي ثمراتٍ رهيبةً إلى يوم النَّاس هذا؛ وهو أسلوبٌ متعِبٌ جدًّا، ونتائجه في الباحثين مدمِّرةٌ لطاقاتهم وجهودهم؛ ويتمُّ ذلك عمومًا في موضوعنا الذي ندرسه ههنا من خلال أمورٍ كثيرةٍ منها: إدخال التشكيك في اليقينيَّات أو الأمور الراجحات، وكذا المسلَّمات، فيفتتح حينها أبواب بحثٍ مغلقة. ومنه تفريع الإشكاليَّة الواحدة إلى مجموعات كبيرة من الإشكاليَّات؛ من دون وضعِ حدٍّ لإجاباتٍ عنها؛ ممَّا يورث عدم الجزم في مواطن الجزم، أو غلبة الظن؛ والنتيجةُ: عدم إغلاق البحث، واستنزاف المزيد من الجهود والطاقات البحثيَّة.

وأمَّا المظهر الآخر فهو: **تجميع المفرَّق**؛ وهذا الأسلوب هو المقابل للأسلوب السابق، من حيث الآليات والكيفيَّات، والأساليب؛ وكذا من حيثُ النوايا والأغراض؛ حيثُ إنَّ الغرض من هذه الطريقة الاختزاليَّة ليس هو ذات الغرض من جمع المفرق في التأليفات على

سبيل المثال؛ وإنَّما مرادهم إسقاط موضوعاتٍ بعينها من مسالك البحث؛ وهي موضوعاتٌ تكون غالبًا تتعلَّق بجوهر الخلاف بين الإسلام وما يدين به غير المسلمين؛ فيخشون إثارتها.

**المطلب الثاني: بيان آثارها.**

لا شكَّ أنَّ ما سبق بيانه من السلبيَّات التي تضمُّها صفحات الفضاء الأزرق، التي تشكِّل نموذج الدراسة؛ وكذلك ما حَوَتْهُ من انحرافاتٍ عميقةٍ لا يمكن السكوت عنها بحالٍ أبدًا، له آثاره العميقة والمدمِّرة في آنٍ واحد؛ وتأتي على الإيجابيَّات مهما كان حجمها، فتنسفها من القواعد؛ ويمكننا تعديد أهمِّ الآثار الناجمة عنها في الآتي:

**1/ انتشار الإلحاد والانحلال:**

وهذه النتيجة نشاهد بعض مظاهرها الآن؛ حيث دائمًا ما يحاول بعض الطلبة عرض المسائل النمطيَّة التي تناولها المستشرقون منذ القرن التاسع الميلادي إلى يومنا هذا؛ والتي استغلها الملحدون في الطَّعن في الإسلام عبر المواقع الإلكترونية المختلفة؛ فتناقلها بعض طلبتنا، عن طريق المواقع الإلحاديَّة. فهم لم يرجعوا حتَّى لكتب المستشرقين؛ لا، ولم يطَّلعوا على مناهجهم، وطرق استدلالهم، وفي الأخير حين يعرضونها في الفضاء الأزرق يعرضونها على أساس أنَّها مسائلُ من بنات أفكارهم[14].

**2/ زوال حاجز النفرة بين الكفريَّات والإيمانيَّات.**

المقصود ههنا أنَّ الإنسان إذا كثرت مخالطته للشيء استأنس به، واعتادَتهُ نفسُهُ؛ وذلك في الخير، وفي الشرِّ. وههنا نجد أن الاضطلاع على كلِّ الديانات والمقالات الدِّينيَّة المخالفة للحقّ؛ والتعامل معها ليلًا ونهارًا، له نوع أثرٍ خفيٍّ يُدركه من وقف على آثاره؛ حيث وإن كان ناقل الكفر ليس كافرًا، غير أنَّه منهجيًّا حين ينقله ينكره قلبُه ولسانُه؛ ولكن من اعتاد قراءة الكفريَّات مُددًا زمانيةً متطاولةً؛ تجده من حيثُ لا يدري معتادًا على سماعها وقراءتها، وتقلِّ النُّكارة في لسانه، وقلبه؛ وتذوب النُّفرة من الكفر ومظاهره على حساب الإيمانيَّات التي كان يجدها من نفسه وقلبه ولعلَّه قريبًا من هذا ما روى البخاري: « **أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لمَّا مرَّ بالحِجْرِ، قال: لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم، إلاَّ أن تكونوا باكينَ أن يصيبَكم ما أصابهم؛ ثمَّ تقنَّع بردائه وهو على الرَّحل**»[15]. فلا بدَّ لقلب المؤمن الطاعِمِ لحلاوة الإيمان، أن لا يعكِّر تلك الحلاوةَ بما يكدِّرها.

**3/ امتزاج المعتقدات ومكوِّنات الأديان.**

وهذا كذلك منبنٍ على ما سبق بيانُهُ؛ فزوال النُّفرة الطبيعيَّة بين الدِّين الحقِّ والدِّين الباطل في نفسيَّة الباحث، يؤدِّي ولا بدَّ إلى عدم التَّمييز بين المعتقدات والمكوِّنات الدِّينيَّة، بين ديانةٍ وأخرى؛ وهذه النتيجةُ مدمِّرةٌ جدًّا في آثارها؛ إذ تصير الأديان كلُّها دينًا واحدًا، مع "أنّه عسيرٌ جدّا أن تجد بين أصحاب الملل –إذا حقّقت– تشابهاً في معنى "الدّين" بمعناه الجامع عند كلّ منهم؛ ومن ادّعى أنّ معنى "الدّين" واحدٌ عند جميعهم، فقد أبطل؛ فإنّه إذا كان معناه ومفهومه واحداً، لما كان هناك معنىً لاختلافهم، وادّعاء كلٍّ منهم أنّ الذي عند صاحبه باطلٌ، ولأوجب ذلك أن يكون جميعهم شركاء على السّوية في الأصول والتفاصيل، في العقائد والعبادات جميعاً"[16]. وإنَّ الوسيلةَ التي تُسلك في سبيل تحقيق هذه النتيجة تكون من خلال توحيد نماذج مكوِّنات الدِّين وهياكلها؛ وعادةً ما يكون النموذجُ الوثنيُّ القديم هو المعيار في ذلك؛ كما تكون

النَّصرانيَّةُ هي أساس الخلفيَّة الفكريَّة في التنظير والتأسيس والأحكام.

**4/ ابتناء شخصيَّات علميَّة مزوَّرة:** فالواحد منهم يحسُّ نفسه مجدِّدًا، أو مصلحًا على هيئة كبار البروتستانت عصرَ النهضة؛ أو داعيةَ تنويرٍ، أتى بما لا تستطيع الأوائل؛ وهذا كلُّه من شأنه أن يجعل منهم مفسدين في الأرض، بقطع النظر عن نيَّتهم ودوافعهم، إلاَّ أنَّ النتيجة واحدةٌ.

**5/ انهيار القدوة وإجلال أهل الفضل:** إذ خُلق الإنسان كائنًا اجتماعيًّا، تقوده غرائزه وفطرته إلى التفاعل مع الأفراد والجماعات المحيطين به، ويكتسب معارف جليلة من خلال احتكاكه بأهلها؛ ويكون أثرها أعظم كلَّما كان الذين يقتدي بهم أعظم؛ ولذلك أُمِرنا أن نقتدي بأعظم المـُثُلِ وهم الأنبياء؛ قال الله تعالى: « **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**»[17]. وإنَّ أهل الحق والإيمان والعمل الصالح أقمارٌ يهتدي بهم من يلزم خطواتهم على سبيل الهدى؛ وليس أيسر على من يريد تدمير مجتمعٍ ما، إلاَّ أن يدمِّر صورة أهل القدوة في الأذهان والفِكَرِ؛ أو يزيِّفَها، أو يحلِّ محلَّها قدواتٍ باطلةٍ من أهل الفسوق والإسفاف والانحلال ونحوها. وإن كان أهل القدوة الباطلة خطرُهم عظيم في مجال السلوك؛ إلاَّ أنَّ أخطر ما يمكن أن تبلغه القدوة السيِّئةُ هو ميادين الأديان والأفكار.

- **المبحث الثالث: أسباب الانحرافات وسبل معالجتها.**

**المطلب الأوَّل: الأسباب:** ويمكننا أن نعدِّد فيها الآتي:

**أ/ الجهل بالتخصص:**

تعني عبارة: "**مقارنة الأديان**" بصورة عامَّة دراسة جميع الأشكال والتقاليد للحياة الدِّينيَّة؛ وبصورة منفصلة عن دراسة ديانةٍ واحدة وعرضها. وأمَّا بالصورة المثلى والأكثر دقَّة فنقول إنَّه: السبر والاختبار المنضبط، الموثَّق بالأدلة التاريخيَّة؛ للاختلافات والاتِّفاقات التي تحويها مختلف الأديان[18].

وثمَّة سؤالٌ طرحته على الكثير من أساتذة مقارنة الأديان بجامعتنا؛ وهو: "**هل ترى في تدريس تخصص مقارنة الأديان بذورًا للانحراف الدِّيني؟**" وكانت إجاباتهم متَّفقةً على نفي ذلك عمومًا؛ فأمَّا بعضُهم فنفى ذلك مستغربًا السؤال قائلاً: «**طبعًا لا**»[19]؛ وبعضهم فصَّل الكلام كقول إحدى الأستاذات[20]: «مقارنة الأديان علم إسلاميٌّ أصيلٌ، بَرَعَ فيه أسلافنا وألَّفوا فيه صنوفًا من الكتب، وأنشئوا أولى مدرسةٍ له في التاريخ الإنساني، فكانوا سبَّاقين في وضع مناهجه وأُسُسِهِ. وقد كان من بين أسباب نشأة هذا العلم، التعريفُ بالانحرافات المختلفة في الدِّين، ورصدُ الفرق الضالَّة والأديان المحرَّفة، أو الوضعيَّة. لكن ما نشهده في وقتنا المعاصر – خاصَّةً في جامعتنا– هو تحوُّلُ منحى هذا العلم الأصيل، من راصدٍ للانحراف، ومؤطِّرٍ للمفاهيم الإنسانيَّة حول الدِّين، وضابطٍ لها؛ إلى أحد مصادر الانحراف، وإلى عاملٍ من عوامله. وهذا مؤشِّرٌ يدلُّ على وجود خللٍ ما؛ وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ كُنه هذا الخلل لا علاقة له بهذا العلم، أو التخصص؛ بل بمناهج تدريسه وبأسباب عديدة مرافقة».

والملاحظ في جامعة الأمير عبد القادر أنَّه يتمُّ الانفتاح على مقارنة الأديان من دون مقدِّمات؛ وهذا العلم ليس من السهل الولوج فيه؛ فإنَّ العلوم الإنسانيَّة

عمومًا تخضع للأفكار المنبنية أساسًا على الخلفيات والظروف التي ينشأ عليها الأفراد والجماعات والكتل البشرية؛ ولربَّما يكون أعظم موجِّهٍ لها جميعًا هو: "**الموقف من الدِّين**"؛ فإنَّنا في زمانٍ كثر فيه الاعتراض على الدِّين بشتَّى المواقف؛ ولذلك لا نجد معالجةً للموضوعات في العلوم الإنسانيَّة إلاَّ ولها تأثُّرٌ بموقف الباحث أو المفكر من الدِّين، إيمانًا أو تكذيبًا؛ وحتَّى المؤمنُ بالدِّين تختلف مواقفُه بعد ذلك بحسب الدِّين الذي يعتقده، أو المذهب الذي يسلكه.

فإذا كان الأمر كذلك في جانب العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، فإنَّ المسألة أشدُّ تعقيدًا في العلوم الدِّينيَّة؛ فإنَّنا نلحظ أنَّ معالجة الباحثين لموضوعات مقارنة الأديان شديدة التباين، وأدواتُها –مهما حاول النَّاس جعلها أكثر علميَّة– فهي تخضع للخلفيَّات الاعتقاديَّة المسبقة.

والذي نلحظه في الخائضين في موضوع الدراسات الدِّينيَّة المقارنة ههنا، أنَّهم يجهلون في الغالب الأعم، أو لنقل في كثير من الأحايين، يجهلون هدفهم من الدراسة؛ وعادةً ما ينخدعون بعنوان: "**الدراسة العلميَّة الموضوعيَّة للأديان**" فيسقطون في فخ ترديد مقالاتٍ لا تتوافق مع الإيمان الصحيح؛ أو تبنِّي منهجٍ لا يستقيم معه كذلك؛ كقول من قال: "وينجمُ عن إضمار أيَّة ميتافيزياء في تعريف الدِّين تزييفُ كلِّ بحثٍ علميٍّ في هذا المجال"[21].

**ب/ ضعف التكوين في العلوم الشرعيَّة:**

وهي سمة واضحةٌ في الذين جرى ملاحظة الانحرافات لديهم؛ فالأرضيَّة التي انطلقوا منها، كانت أرضيَّةً ملفَّقةً ليِّنةً؛ ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى كيفيَّة الولوج إلى علم مقارنة الأديان؛ وكيف تطوَّرت مساراتهم في درسه. وهنا يمكنني أن أوجِّه نقدين أساسيَّين – أرجوهما بنَّاءين – حول مسارات علم مقارنة الأديان في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية؛ كالآتي:

– إنَّ موضوعاتٍ تُدرج كموادٍ تعليميَّة، – أو مفرداتٍ داخل المادة– في الجانب غير الإسلامي، في حين لا نجد ما يقابلها من التدريس في الجانب الإسلامي؛ حينئذٍ نكون مدرِّسين للشبهة من دون أن يكون للطالب القدرة على دفعها حسب التكوين العلمي الذي يتلقَّاه منَّا.

– إنَّ التكوين في عمومه يرتكز على جانب المعلومات أكثر من المنهجية في المعالجة؛ وذلك كان من شأنه أن يضعف البعد المقاصدي من تدريس علم مقارنة الأديان؛ حيث صار الأمر في الغالبية من الأحايين تعلُّمًا من أجل التثقُّف والتعرُّف على الآخر فقط.

وكنتيجة لهذا النهج التعليمي غير المتوازن، وجدنا الطلبة بإزائه في وضعين: من جهة وبدافع التثقُّف الذي زُرِعَ فيهم، أبحروا في فضاءات الإنترنت، يحاولون أن يدركوا فضاءات أرحبَ لممارسة ما تعلَّموه؛ من دون أن تكون لهم عقدةٌ في التواصل مع الآخر غير المسلم، أو المخالف في الأفكار؛ وحينها جعلوا يواصلون – ومن دون وعيٍ– في الاستزادة من المعلومات دون أن يكون في أذهانهم هياكل معرفيَّة يَنْظِمون فيها استزاداتهم المعرفيَّة، وهو ما عمَّق المشكلة. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ اضطلاعهم على كمٍّ هائلٍ من المعلومات والموضوعات الدِّينيَّة – ممَّا ضاقت عنه المحاضرات والدروس في الجامعة– جعل الطلبة يرون في أساتذتهم كمن أخفى عنهم منابع العلم والمعرفة، أو أنَّهم يدلِّسون عليهم في ما

يتعلَّق بمسائل غير المسلمين؛ بخاصَّةٍ حينما يرون كيف أنَّ الغرب يقطع أشواطًا بعيدةً في دراسة الدِّين من دون حدود أو قيودٍ ظاهرةٍ؛ فيفتتنون حينها بالتهوين من شأن التعظيم والتقديس؛ والجراءة في النقد والتحليل، وتطبيق ما هبَّ ودبَّ من المناهج والطرائق... الخ؛ والسبب الرئيس وراء ذلك غياب دراستهم لمناهج الردِّ على الشبهات عامَّة، وفي الدِّين خاصَّةً.

### ج/ العقليَّة الانهزاميَّة:

الحقيقة أنَّ هناك تخبُّطًا كبيرًا لطلبة المقارنة في المجموعات وعلى صفحاتهم؛ فيشعُر المتتبِّع لمنشوراتهم بافتتانهم بالمناهج الغربيَّة في النقد، دون الإلمام بها، والإحاطة بأسسها. فبمجرَّد قراءةٍ سطحيَّةٍ لبعض المداخل الإبستيمولوجية، يعتقد الطالب أنه أمسك بناصية المعرفة؛ مما كرَّس استعلاءً، وفوقيَّةً في خطاب الطلبة؛ وشكَّل غُرورًا معرفيًّا لدى البعض، هو في حقيقته أوهَن من بيت العنكبوت[22].

وهذه الانهزاميَّة ليست وليدةَ اليوم؛ وإنَّما هي امتدادٌ للأثر الذي أحدثته النهضة الأوروبيَّة في نفوس أهل الشرق وعقول أبنائه، يوم اتَّصلت بهم؛ فما يزال ذلك الاضطراب الذي أحدثته في أغلبهم متوارثًا، بل ويزداد سوءً من حيث آثاره جيلاً من بعد جيلٍ؛ وقد كان الاستشراق حامل اللواء في ذلك، يسنده التنصير والاستعمار، حيث « إنَّ العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربيَّة؛ ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركَّب نقص محسوس من ناحيةٍ؛ ومحاولة التغلُّب عليه من ناحيَّةٍ أخرى، حتَّى بالوسائل التافهة. ثمَّ إنَّه قد أحدثت هذه الصدمة عند قبيلٍ من المثقَّفين المسلمين شبه شللٍ في جهاز حصانتهم الثقافيَّة».[23] وإنَّ اليوم حقًّا كالأمس، لم تَخْفُتِ الآثارُ، ولم تخفَّ الأضرار؛ بل ما تزال الانهزاميَّة حاضرة في أنفس المثقفين والطلبة والأساتذة؛ وليست مظاهر ذلك بمقصورةٍ على علم مقارنة الأديان والخائضين فيه؛ بل الكلُّ في الهمِّ شرقُ.

### د/ ضعف مناهج التعليم:

إنَّ التعليم عمليَّة بيداغوجيَّة ممنهجةٌ، تراكميَّةٌ، يُحيل مستوًى محصَّلٌ منها، على آخرَ يراد تحصيله. لكنَّ المشكلة أن رسالة التعليم لدينا غير واضحة المعالم، ولا الأساليب، ولا الأهداف. ولا يُسعى في تحقيقها من منطلقات التكامل، ولا التساند، ولا التوازي مع مكوِّنات الهويَّة. فجاءت الأثمار متَّسقة مع هذه الاضطرابات الشديدة في المنطلقات والآليات والمنهجيَّات. لا نتحدَّث هنا عن التعليم الجامعي – الذي هو الحلقة الأخيرة من الأطوار– وإنَّما نتحدَّث عن الأطوار جميعِها.

وعمومًا– والكلام ليس على إطلاقه– قد صار التعليم في المراحل ما قبل الجامعيَّة في كثيرٍ من الأحيان أشبه بتبديد الأميَّة في المعارف والعلوم؛ والقراءة والكتابة؛ بشكلٍ لا يضمن للطالب عند دخوله الجامعة قاعدةً صلبة يرتكز عليها – على أساسٍ من الوعي– في فهم ذاته، واختيار مسار تعليمه، وتحديدِ ما يريد كونَه.

وأعظم العقبات في ذلك جهله بتاريخه وتاريخ أمَّته، وضعفُه في لغته، كذا ضعفُه في دينه، وزِدْ ضعفَهُ في التعامل مع الأفراد ومع المجتمع؛ وكلُّ هذه الضرورات التي يميِّزها الضعف؛ كان من شأنها أن تكسب المرء قوَّة الشخصيَّة العلميَّة التي تنير له طريقه الجامعيَّة التي تتوِّج وتُتمِّمُ ما قبلها من المراحل، وتكون انطلاقته الكبرى نحو خدمة مجتمعه وأهداف أمَّته. فإذا كان ضعيفًا فيما

سبق، فإنَّ العاقبةَ هي السوء ولا بدَّ – وهو الحاصل- حيث إنَّ الطلبة يمارسون وظيفتهم كمثقَّفين، أو ما يقرب منها، من دون أن تكون لهم روافد ثقافيَّة وعلمية أصيلة تمنحهم القدرة على ممارسة وظيفتهم النبيلة.

وليس في الدراسة الجامعية – إذا ضَعُف ما قبلها من دراسةٍ- القدرةُ على تدارك ما فات إلاَّ نادرًا؛ وخاصَّة إذا كان التعليم الجامعي بنفس درجات الاضطراب التي سبقت في الأطوار والمراحل التَّعليميَّة السابقة.

**هـ/ ضعف المرافقة والإشراف:**

وهنا حين نقول هذا الكلام، نقوله بصرف النظر عن الظروف والإكراهات الواقعيَّة التي تحول بين تحقيق المرافقة الأستاذيَّة الأبويَّة للطلبة، والإشراف العلمي والمنهجي على سيرورتهم البحثيَّة؛ إلاَّ أنَّنا نتحمل أوزارها، أخلاقيًّا في أدنى المستويات؛ ويقرُّ كثيرٌ من الأساتذة الذين تحاورنا معهم، ويعترفون بتقصيرهم في هذا الجانب، وأنا قبلهم أقرُّ بذلك، وأسأل الله تعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، وأن يتوب الله علينا لنتوب، ونقوم بواجباتنا.

في مقابل ذلك نودُّ أن نسجِّل ههنا، أنَّ غالبيَّة المشتركين الفاعلين في المجموعات وعلى صفحاتهم في مجال مقارنة الأديان – طلبةً وغيرَهم- هم شبابٌ أو مراهقون، يحدث لنا معهم ما يحدث للآباء مع أبنائهم في تلك السنِّ الحرجة؛ ويظنُّون بنا ما يظنُّونه بآبائهم في الجوانب السلبيَّة. كالأب ينهى ابنه عن مخالطة من لا يوثق في خلقه من أخلاَّنه، فيعتقد الابنُ أنَّ أباه سيِّءُ الظُّنون مثلاً. أو حين يتروَّى الوالد في أمورٍ معيَّنة ويتعامل معها بهدوءٍ أو تجاهلٍ يظنُّها الولد منه تخاذلاً، أو خوفًا، أو ضعفًا، ونحوِ ذلك من الظُّنون.

نفس الأمر يعانيه النَّاصحون من الأساتذة، فلو حذَّرت أحدَهُم من فكرةٍ خبيثةٍ، فأنت محجِّرٌ لواسعِ سُبُلِ العقل والفكر. وإن أنت غضبت حتَّى انتفخت أوداجُك، لتطاوُلِ أحدهم، وسوءِ أدبه اتِّجاه ربِّ العالمين، أو كتبه، أو رسله، أو شرائعه؛ فأنت حينها متعصِّبٌ، سجينٌ وعبدٌ لفكرة المقدَّس. ولو أنَّك أرشدتهم أنَّه ينبغي علينا استثمار البحثِ في مقارنة الأديان من أجل خدمة الإسلام، أجابوك أنَّ ميادين العلم والفكر والبحث العلمي أرحبُ من مجرَّد خدمة الإسلام، أو الاقتصار عليه؛ ويحدِّثونك حينها عن الموضوعيَّة، والتجرُّد من الذَّاتية، وغيرها من خطاباتٍ ظاهرُهَا في بعضه حقٌّ، وبعضُه الآخرُ باطلٌ؛ والباطن غلب عليه عمومًا سمومٌ من غير بيئتنا الإسلاميَّة. وإذا اقتصرت على موضوعات معيَّنةٍ نافعة بما تراه يتناسب مع قدرات الطلبة والمطلوب منهم، دون موضوعات أخرى لا ينفع الحديث عنها في مستوياتٍ أولى؛ فأنت حينها بلا شكٍّ عندهم: إمَّا جاهل ليس لك من علم مقارنة الأديان إلاَّ رسومٌ؛ وإمَّا أنَّك متعصِّبٌ تخفي الحقائق لئلاَّ يضطلعوا عليها... إلى آخر ذلك من تهمٍ لا تنتهي، من ظنون الابن بوالده نَسَبًا، أو عِلْمًا.

**و/ الاختلاط غير الممنهج بالآخر:**

حيث يمكننا أن نلحظ بيسرٍ وجود محرِّكين ذوي ثقافة دينية جيدة من غير المسلمين، أو من غير أهل السنَّة، كأنهم يؤطِّرون الطلبة؛ مع وجود انبهارٍ بهم لا يخفى؛ وعالم الفايسبوك لا يَصِل أوصالَ مجتمعٍ تقليديٍّ وحسب؛ بل أكثر من ذلك إنَّه يكوِّن مجتمعاتٍ معولَمَةً من أخلاطٍ شتَّى. وهنا تكمن الخطورة؛ أعني أنَّ الاختلاط بالآخر لم يكن بطريقةٍ آمنةٍ؛ "ولعلَّ الفايسبوك، هذا الفضاء المفتوح على كل الرؤى

والأفكار، شكَّلَ أحدَ أهمِّ القنوات التي حوَّلت الدراسات النظرية لطلبة مقارنة الأديان إلى تواصلٍ مباشرٍ، وتفاعلٍ آنيّ، مما كان له آثاره السلبيَّة المختلفة، خاصة مع ضعفِ تكوين الطلبةِ وقلَّة زادهم العلمي"[24]؛ فإذا كان بعض الذين يحتكُّون بهؤلاء الطلبة، أصحابَ مشاريعَ هدَّامَّة؛ يضبطون عِلمَهم، ويُتقنون عَمَلَهُم، فالنتيجة التي وقفنا على بعض مظاهرها: افتتانٌ بهم، وتقليدٌ لهم، وتصديقٌ لكلِّ ما يصدر منهم.

**ز/ تطوُّر وسائل الاتِّصال والتواصل الحديثة:**

هذا التطوُّر قد فاق كلَّ التوقُّعات، وسار في شتَّى الاتِّجاهات، بحيث تعصى على المتابعة والإحصاء؛ وذلك ما يضعف جوانب الرقابة والحماية والوقاية؛ ويحول دون المرافقة والإشراف الواعيين. ثمَّ إنَّ هذه الوسائل خرجت بالتعليم والتثقيف عن دروبه التقليديَّة؛ واضطربت به طرق التلقِّي؛ حيث صارت مصادرُه شتَّى. هذا التنوُّع لربَّما كانت له مزاياه في بعض المجالات؛ وإنَّما في مجال الأديان الأمر مختلفٌ جدًّا؛ إنَّنا نراها تشويشًا على الذهن، تشويشًا على البحث، ومصدرًا ممطرًا لألوان الشبهات التي تزيد المرء حيرة يومًا بعد يوم.

**المطلب الثاني: سبل العلاج والوقاية.**

نحاول هنا — بطريقةٍ تلخيصيَّة واستنباطيَّة ممَّا سبق بيانه من المظاهر والأسباب- أن نذكر بعض الحلول التي تشكِّل إمَّا وقايةً أو علاجًا، وإمَّا هما معًا؛ ومن ذلك الآتي:

**أ/ التكوين المأصَّل في علوم الشريعة:**

إذ إنَّه لا يمكن لجاهلٍ بدينه، أن يفتتح البحثَ في أديان الآخرين؛ فضلاً أن يكون له القدرة على الحوار في الاتِّجاهين؛ ولا تنفع النيَّة الصالحة وحدها ههنا؛ فلا بدَّ من التحضير العلمي الممنهج.

وأهمُّ ما نقترحه ههنا هو أن لا تكون الموادُّ المدرَّسة في جانب الدِّيانات من سوى الإسلام أكثر من المواد التي تُعنى بالإسلام؛ فالباحثون في الأديان من أهل الديانات المختلفة لا تجدهم أصلاً ينطلقون في حواراتهم إلاَّ ولهم عمقُ فهمٍ لدياناتهم، ثمَّ ديانة الآخر. كما إنَّ مناقشة المسائل الدِّينيَّة تتمُّ - أغلبيًّا — من خلال طرح الإشكالات، وهذه الإشكالات تتأسَّس على ما عهده المرءُ في دينه ويعتقده صوابًا؛ ثمَّ يطرحُ على مخالِفه ما استشكله عليه. فكيف يجيب مثلاً جاهلٌ بعلوم الحديث عن استشكالٍ أو شبهةٍ تلقى عليه من المخالف في مسألةٍ حديثيَّة؟ عليه إمَّا أن يعود ليتفقَّه في المسألة من مصادرها؛ أو يقتنع بالشبهة من دون أن ينظر في المسألة أساسًا، خاصَّةً حينما يكون الخصم على علمٍ بجهل المسلم بدينه، ويسلك معه خدعًا علميَّة يُلبسها ثوب المنهج والمنطق.

فأمَّا المسلك الثاني فواضح الخطأ؛ وأمَّا المسلك الأوَّل فهو وإن كان سليمًا من حيثُ إنَّ صاحبه لم يتورَّط فيما لا يعلم؛ إلاَّ أنَّ الخلل كامنٌ في أنَّ المرء يعود ليتفقَّه في مسألةٍ، لا أن يعود ليتعلَّم علمًا من الأساس. وعلى ذلك الخلل يكون في التكوين ومساره الذي لابدَّ وأن يضمَّ تدريس العلوم الشرعيَّة كلَّها، بحيث يتمكَّن الباحث والخائض في مقارنة الأديان من الدخول في البحوث الدِّينيَّة بخطًى ثابتة؛ وبعد ذلك مهما استوقفته مسألة أو استشكالٌ فيمكنه العودة والبحث فيها؛ لأنَّه يكون لديه عندها قاعدةٌ قويَّة في **أصول العلوم الشرعيَّة**؛ وبذلك سيختفي الكثير من التَّخليط الغريب الذي نراه كثيرًا في المجموعات والصفحات الفايسبوكية.

**ب/ تنمية الوازع الدِّيني:**

ويقع على عاتق الأساتذة تنمية الحسِّ الدِّيني ونشرُهُ؛ فهناك من الطلبة والباحثين، من تكاد تنعدم لديه النوازع الدِّينية، وليس له واعظٌ في حياته؛ مما يُسهِّل انحرافَهُ. كما إنَّ كثيرًا من الخائضين في الحوارات الدِّينيَّة يتحدَّثون بالكلمات التي يُسخطها الله، ولا يلقون لها بالاً؛ ويمزجونها أحيانًا بالسخريَّة.

وإذا كان العلم يؤتي ثمراته إذا سلمت مناهجه، وأدواته؛ فإنَّ البحوث التي تدخلها الأهواء من العلوم الإنسانيَّة لابدَّ لإثمارها من سلامة نيَّة الباحث فيها؛ وأتمُّ النيَّة السليمة أن يكون للباحث وازعٌ ديني يردعه؛ ويقوِّم سلوكَهُ. إذ إنَّ الوازع الدِّينيَّ هو بمثابة البعد الروحي للأعمال والسلوكات في الذات العلميَّة للباحث في الأديان؛ فلا يمكن الخوض في تلكم المباحث من دون أن يلتزم المرء بالآداب التي يحُدُّها له وازعه الدِّينيُّ المنبني على الإيمان الصادق.

**ج/ التوجيه الإيجابي للطاقات:**

إذ ما لم نشغل طلبتنا بالحق، شغلهم غيرنا بالباطل؛ ففي غياب مقترحاتٍ من الأساتذة لموضوعات يبحثها الطلبة، فإنَّ أهل الباطل بما يطرحونه عليهم من شبهاتٍ وأفكارٍ، يقومون بتمهيد الأرض لهم ليخطُّوا المسارات البحثيَّة السيِّئة التي يريدونها منهم؛ ولا يقتصر الأمر على مجرَّد اقتراح الموضوعات ومجالات البحث والكلام؛ بل ينضاف إليه التوجيه لهم – بأشكالٍ مباشرة وغير مباشرة – في مساراتهم.

**د/ فتح أبواب الحوار مع الطلبة والباحثين:**

ويكون ذلك داخل قاعات الدرس، ومدرَّجاته، وكذلك في الفضاءات الافتراضيَّة التي يُظهِرُ فيها الطلبةُ ما لا يُظهرونه في الأماكن الواقعية. وهو فرصةٌ لنوضِّح لهم أنَّ **ما يردِّدونه قد سُبقوا إليه**: ونحن حين نبيِّن لهم ذلك، نختصر عليهم المسافات؛ فندرِّسهم الشبهات، والردود عليها بالآيات والبراهين الواضحات البيِّنات. حينها نحصِّل فائدتين جليلتين؛ أولاهما: توفير الطاقات التي سيصرفها الطلبة وهم معتقدون أنَّهم يأتون بالجديد الذي لم يسبقوا إليه؛ وأمَّا الأخرى: فقصرُهُم عن طريق الشرِّ قبل ولوجه؛ حيث قد أثبتت التجارب أنَّ التراجع عن الأفكار ليس باليسير أبدًا؛ وكلَّما تعقَّد نسيج الأفكار في شكل مقالة أو مذهبٍ واعتقادٍ، كلَّما كان تطهير العقل والقلب والروح من سيِّئها أعقدَ وأصعبَ.

**هـ/ ضرورة مراجعة كيفيَّات التدريس:**

ويشمل ذلك بالأساس، إعدادَ مسارٍ تكوينيٍّ في تخصُّص مقارنة الأديان، دقيقَ المُدخلات؛ مضبوطَ المُخرجات واضِحَها. بحيثُ تكون المنطلقاتُ من نسيج انتمائنا الدِّيني والحضاري؛ منضبطةً بالمنهجيَّة العلميَّة.

وبالإضافة إلى الاهتمام بالعلوم الشرعيَّة؛ ينبغي أن تكون الاختيارات بمنهجيَّةٍ للمواد المتعلِّقة بالدِّيانات المخالفة؛ والحجم الساعي المتوافق معها؛ وكيفيَّة التَّلقين، وتراكم المعارف؛ فلا يُعقل أن تلقَّن الشُّبهة مثلاً من دون بيان الردِّ العلمي المنهجي عليها؛ أو أن يكون التدريس مراكمةً للشُّبهات؛ أو إلقاءً لأحكامٍ تنظيريَّة من دون أدلَّتها التي تؤسِّس لها.

**و/ مرافقة الطلبة:**

إنَّ العمليَّة التعليميَّة لا يمكن لها أن تكون مثمرةً مالم يُحطها بالرعاية مشرفون عليها؛ يرافقون الطلبة في مسالكها ودروبها. حيثُ يخطئ من يغترُّ بمجرَّد الاستكثار من المعلومات؛ وإنَّما لا بدَّ من تتميم ذلك بحسن جمعها وانتقائها؛ ثمَّ حسن الإفادة منها واستثمارها. وإذا كان عمر الإنسان يفنى ولا يحصِّل من العلم إلاَّ النَّزرَ اليسير جدًّا؛ فلابدَّ إذن من توجيه الجهود إلى تحصيل الأنفع، فالنافع وهكذا. وتعدُّ خسارةً عظيمة أن تضيع جهود الباحث في مسارٍ خاطيء، فليس يسعفه من العمر أن يعاود الانطلاقة من الصفر، فلا بدَّ من المتابعة والإشراف على المُنتَجِ الفكريِّ؛ وإذا كان الأمرُ مهمًّا في فضاءات الجامعات، وميادين البحوث؛ فهو أشدُّ أهميَّة وإلحاحًا في الميادين الافتراضيَّة.

## ز/ استيعاب النماذج الشاذَّة:

حيث إنَّ بعضَ النماذج، التي عجزت عن إثبات ذاتها – خاصَّةً داخل الجامعة- تحاول إحداثَ الضجيج في الفضاءات الافتراضيَّة، للفت الانتباه إليها، لا أكثرَ ولا أقلّ[25]. ومع ذلك لا بدَّ من استيعاب هذه النماذج، وذلك أساسًا من منطلق الالتزام الأخلاقي الذي ينبغي أن يتحلَّى به كلُّ أستاذٍ وباحثٍ؛ وكلُّ هيئةٍ ومؤسَّسة علميَّة؛ وينبغي كذلك أن يتحلَّى به روَّاد الفضاء الأزرق – وغيره- والمشرفون على صفحاته التواصليَّة.

## خاتمة.

في خاتمة هذا البحث، يجدر بنا أن نجمع زبدة ما توصَّلنا إليه، ونتائجه، في شكل نقاطٍ كالآتي:

- مواقع التواصل الاجتماعي – صفحات الفايسبوك ههنا – والتي في حقيقة أمرها ليست بالمنابر العلميَّة؛ تحوَّلت إلى ساحات للتنظير والتأسيس العلميين؛ وصار ما يدوَّن فيها من ملحوظات وتعاليق معدودًا كأنَّه حقائق علميَّة، أو نتائج بحثيَّة؛ وهي في حقيقة أمرها لا تعدو أن تكون مجرَّد مطارحاتٍ لأفكارٍ لها ما لها، وعليها ما عليها.

- إنَّ تعدُّد مشارب ومناهل علم مقارنة الأديان من جهة؛ وتنوُّع أديان ومذاهب ومدارس الكاتبين فيه من جهةٍ أخرى؛ يخلط على الباحثين – بما فيهم طلبة مقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر- التلقِّي للعلم والمعرفة في هذا العلم؛ وفي فضاء التواصل الاجتماعي تزول كلُّ الحواجز، وتلغى الكثير من الرتب، وتختلط على الناس معالم القدوة، وإذا علا صوت المنادي بالموضوعيَّة خفتت له الأصوات وإن كان مخلِّطًا.

- تعلُّق مسائل علم مقارنة الأديان بالذات وبالآخر معًا يجعلها خاضعةً لدينا – نحن المسلمينَ- لعقيدتنا وأحكام شريعتنا، ووازعنا الدِّيني في بحثنا، سواء في ديننا، أو في دين الآخر؛ ذلك الآخرُ الذي أُمِرْنَا أن لا نبخسه حقَّه، ولا نظلمه، ولا نفتري عليه ما ليس فيه؛ كما إنَّ عِلميَّة مقارنة الأديان لن تأتي بما يخطِّئ ديننا وما فيه من الحق الذي نعتقده.

- إنَّ حصيلة ما دوِّن في مجال مقارنة الأديان هو بالأساس خاضعٌ لتوجيهاتٍ – أحيانًا ظاهرة، وأخرى باطنة – بوحيٍ من منطلقات الباحثين فيه؛ فموضوعاتُهُ مهما أُلصق بها من موضوعيَّة فإنَّها خاضعة لدين الخائض فيها، ومذهبه الاعتقادي، أو الفكري، أو المدرسة العلميَّة التي ينتمي إليها. كما إنَّه مهما ورد من تنظيراتٍ تريد لعلم مقارنة الأديان أن يكون حياديًّا، إلاَّ أنَّ الواقع الذي نشهده، يشهد بأنَّ الحياديَّة في هذا المجال تريد أن تجعل قاعدة بنائها ومنطلقاتها الإقرارَ بأنَّ

الدِّين صناعة الإنسان، ومن وضعه؛ وأمَّا منطلقاتنا نحن أنَّ الله هو الذي أنزل الدِّين.

- لاحظنا العديد من الانحرافات في المجموعات محلِّ الدراسات وعلى صفحات بعض أعضائها؛ ومن ذلك: الاستهانة بالمقدسات، والتساهلُ في إلقاء الألفاظ والأحكام؛ مع سوء أدب مع الشخصيَّات الدِّينيَّة، وبخاصَّة النبويَّة؛ والجنوح إلى جلد الذات، في مقابل التساهل مع الآخر – الذي يجرُّهم إلى التبعيَّة له– المنبني على شدَّة الانبهار والتأثُّر به وبما لديه؛ والخلط المنهجي بين التعميم والتخصيص والتسوية؛ أضف إليها التَّخليط في معالجة الموضوعات واختيارها.

- أهمُّ أسباب تلك الانحرافات تعود إلى: الجهل بالتخصص، الذي يسنده ضعف التكوين في العلوم الشرعيَّة؛ وتكلِّله العقليَّة الانهزاميَّة؛ الممتدَّة في ضعف مناهج التعليم، وضعف المرافقة والإشراف، وتزداد الأزمة تفاقمًا بسبب الاختلاط غير الممنهج بالآخر؛ في عالمٍ تطوَّرت فيه وسائل الاتِّصال والتواصل بشكلٍ رهيبٍ.

- آثار تلك الانحرافات كثيرةٌ، أعظمها على الإطلاق انتشار الإلحاد والانحلال، بتيسير المداخل إليهما، كزوال حاجز النفرة بين الكفريَّات والإيمانيَّات؛ وكامتزاج المعتقدات ومكوِّنات الأديان؛ ومنها كذلك ابتناء شخصيَّات علميَّة مزوَّرة، وخاصَّةً لدى انهيار القدوة وإجلال أهل الفضل.

- من بين وسائل الوقاية والعلاج من تلك الانحرافات نجد الآتي: الاهتمام بالتكوين المأصَّل في علوم الشريعة مع ضرورة مراجعة كيفيَّات التدريس؛ وتنمية الوازع الدِّيني مع التوجيه الإيجابي للطاقات، وفتح أبواب الحوار مع الطلبة والباحثين، وحسن مرافقتهم والإشراف عليهم؛ بل واستيعاب حتَّى النماذج الشاذَّة.

## قائمة المصادر والمراجع


- القرآن العظيم، برواية حفصٍ عن عاصم.
- محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: **الجامع الصحيح**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الدَّار الذَّهبيَّة: القاهرة– مصر.
- **مجموعة الإسلام والأديان**: على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/114138865281559
- **مجموعة مقارنة الأديان**: على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/195249993827545/
- **مجموعة يد واحدة ضد التنصير**: على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/122018351145955
- **مجموعة لا للتنصير في الجزائر**: على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/no.tansir/?ref=ts&fref=ts
- مصلح الصالح: **الشَّامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة**، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض– المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1999م.

● جيل فيريول: **معجم مصطلحات علم الاجتماع**، ترجمة أنسام مُحَمَّد الأسعد، مراجعة بسام بركة، (ط1)، دار ومكتبة الهلال: بيروت- لبنان، 2011م.

● أحمد بن محمَّد بن علي الفيُّومي المقري: **المصباح المنير**، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، 1987م.

● أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **تفسير غريب القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة: بيروت- لبنان، 1978م.

● محمود شاكر: **أباطيل وأسمار**؛(ط3)، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، 2005م.

● أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: **كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة**، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط1)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، 1994م.

● المستشرق جيب، عادل العوا: **علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي**، (ط1)، منشورات عويدات: بيروت- لبنان؛ باريس- فرنسا، 1977م.

● مالك بن نبي: **إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، (ط1)، دار الإرشاد: بيروت- لبنان، 1969م.

● Encyclopedia of Religions ; 2nd edition ; Macmilan reference ;USA

**الهوامش:**

1- على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/114138865281559

2- بتاريخ 2015/07/25م.

3- على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/195249993827545

4- بتاريخ 2015/07/25م.

5- على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/122018351145955

6- بتاريخ 2015/07/25م.

7- على الرابط الآتي: https://www.facebook.com/groups/no.tansir/?ref=ts&fref=ts

8- بتاريخ 2015/08/24م.

9- وفي هذا المضمار يرى الدكتور: يوسف العايب في سؤالٍ عن تقويمه لتلك المجموعات وبعض الصفحات الخاصة للأعضاء أنَّه يمكن النظر إليها على أساس المستوى العام لغالبيَّة الطبقة المثقفة العربية والجزائرية على وجه الخصوص؛ والتي هي غائبةٌ عن الوعيِ الحضاري، ناهيك عن العلمي، وذلك في الواقع الحقيقيّ؛ فما بالك بما هو افتراضيٌّ.

10- مصلح الصالح: **الشَّامل، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة**، (ط1)، دار عالم الكتب: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1999م، ص،467.

11- جيل فيريول: **معجم مصطلحات علم الاجتماع**، ترجمة أنسام مُحَمَّد الأسعد، مراجعة بسام بركة، (ط1)، دار ومكتبة الهلال: بيروت- لبنان، 2011م، ص156.

12- البقرة: 30.

13- أحمد بن محمَّد بن علي الفيُّومي المقري: **المصباح المنير**، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، 1987م، ص188. أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **تفسير غريب القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة: بيروت- لبنان، 1978م، ص8-9. وانظر كذلك: أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي: **كتاب الزينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة**، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي، (ط1)، مركز الدراسات والبحوث اليمني: صنعاء- اليمن، 1994م، ص262.

14- الكلام للدكتورة آسيا شكيرب.

[15]- البخاري: أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**"، ح3380، ص708. عن سالم بن عبد الله عن أبيه ﷺ.

[16]- محمود شاكر: **أباطيل وأسمار**؛(ط3)، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، 2005م، ص426.

[17]- الأحزاب: 21.

[18] -Encyclopedia of Religions ; 2nd edition ; Macmilan reference ;USA (1877/3) .

[19]- كالدكتور: يوسف العايب.

[20]- الدكتورة: آسيا شكيرب.

[21]- هو قول: ميشيل ميسلن في كتابه: "من أجل علم الأديان"، انظر: المستشرق جيب، عادل العوا: **علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي**، (ط1)، منشورات عويدات: بيروت- لبنان؛ باريس- فرنسا، 1977م، ص19.

[22]- الكلام للدكتورة: آسيا شكيرب.

[23]- مالك بن نبي: **إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، (ط1)، دار الإرشاد: بيروت- لبنان، 1969م، ص10.

[24]- الكلام للدكتورة آسيا شكيرب.

[25]- الكلام للدكتور يوسف العايب.